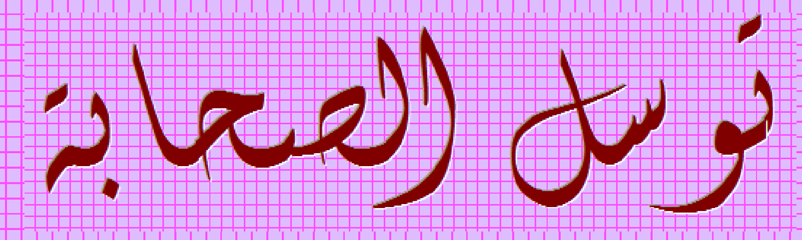


قراءة منهجية

أثر الفاروق عمر بتوسله بالعباس

وأثر أبي أيوب الأنصاري وعثمان بن حنيف

وأثر أم المؤمنين عائشة

رضي الله عنهم

د. زياد حبوب أبو رجائي



المحتويات

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم مستصحباً اسمَ ربي تبركاً ، وبه أستعينُ لبيان الحق فيها متوسلاً بالصلاة على سيدنا محمد ﷺ لفتح باب القبول له[(١)] ليعمّ خيره بإذن الله.

(١) عن عمر موقوفاً في حكم الرفع : "إِنَّ الدُّعَاءَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، لا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". رواه الترمذي وحسنه ووافقه الحافظ ابن كثير والحافظ العراقي والقاضي ابن العربي

والحمد لله رب العالمين وبعد ؛

ثبت انّ أبا علي الخلال الحنبلي كان يقول :

" ما همّني أمرٌ فقصدت قبرَ موسى بن جعفر[١] فتوسّلتُ به إلا سَهَل اللهُ تعالى لي ما أحبُّ "[٢]

جواز التوسل في المذاهب الأربعة مسألةٌ مقررةٌ ومحررةٌ ومُحقّقةٌ تحقيقاً وفق أصولِ الفقهِ عندَ أهل السّنة ابتداءً.

قالوا : لو كان التوسّلُ بالنّبي جائزاً ، لَما تركَهُ الصحابةُ مع وجودِ المقتضى لذلك[٣] .. بل لماذا توسّل عمرٌ بالعبّاس ولم يتوسّلْ بالنبي ﷺ ؟ ولماذا لم يذهب إلى القبر الشريف وتوسل هناك ؟

---

(١) موسى ابن الإمام جعفر الصادق (ت ١٨٣هـ)

(٢) رواه الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد١/ ١٢٠)

(٣) هذا قولهم، والحق أن ذلك مردودٌ بوجهين ، الأول أن الصحابةَ فعلوه فقد ثبت عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قوله : "جئتُ رسولَ الله ﷺ ولم آتِ الحجرَ". رواه احمد وصححه الحاكم ووافقه الذهبي[١]

والصحابي الآخر هو عثمان بن حنيف[٢] وسنناقشه في فصل مستقل من هذا البحث إن شاء الله.

أسئلة مشروعة قد يثيرها الآخرون للتشغيب على من أجاز التوسل برسول الله ﷺ حياً وميتاً واقتدى بالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كما نقلها الشيخ ابن تيمية [(١)] وغيره في كتب الحنابلة.

وسنشرع في هذه الرسالة برد الشبهات المُثارة حول جواز التوسل بالنبي الكريم صلوات ربي عليه وآله وسلم واثبات مشروعيته في ضوء عمل الصحابة رضوان الله عليهم...

وأبسط الردود على ذلك الرد بالمقابل : لو كان صحيحاً قولُكم... فلماذا ترك عمرٌ التوسلَ بالأسماء الحسنى وهي أقرب اليه ؟ من شخص العباس وغيره .. والتوسلُ بالأسماء الحسنى متفقٌ عليها لقوله تعالى : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ)

....

(١) والحديث مداره على زيد بن كثير روى له البخاري في جزء القراءة خلف الإمام وثّقه الامام احمد وقال الذهب ولولاه لحكمنا على الحديث بالصّحة. أي انه حسن.

(٢) صحابي من الأنصار من بني حنش بن عوف من الأوس، ولأه عمر بن الخطاب خراج سواد العراق، ثم ولاه علي بن أبي طالب البصرة قبل موقعة الجمل، وتوفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

(١) الفتاوى الكبرى (٢/٤٢٢)

ورغم أن هذه الأسئلة في مقابلة بعضها بعضاً تسطيحية و ساذجة إلا أنّها مؤثرة في نفوس بعض عوام طلبة العلم فيجنحون بها إلى ما يخالف إجماع أهل السّنة في جواز التوسل به ﷺ لسهولة تركُّبها على العقليات بالظاهر دون الخوض في أصول التفقه في النصوص الثابتة.

وجاز كذلك أن نقولَ : ولماذا اختار العباس ؟! معَ وجودِ من هو أفضل من العباس من الصحابة... وأجاب أهل السّنة : لقرابته من النبي ﷺ كانت الافضلية له

قال ابنُ بطّال : وأما استسقاء عمرُ بالعباس، فإنّما هو للرحم التى كانت بينه وبين النّبى، فأراد عمرُ أن يَصِلها بمراعاة حقّهِ، ويَتوسّل إلى من أمر بصلة الأرحام بما وصلوه من رحم العباس، وأن يجعلوا ذلك السبب إلى رحمة الله تعالى)[١]

(١) (شرح صحيح البخارى٩/٣)

وقـال الحـافظُ ابـنُ حجـر : (ويـستفاد مـن قـصة العبـاس اسـتحبابُ الاستشفاع بأهل الخير والصلاح ، وأهل بيت النبوة وفيه فضل العباس ، وفضل عمر ، لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه) (١)

هل تظن أنّ ابنَ الخطاب ابتدع ذلك مع وجود المقتضى ؟!

١. الا يشير لك بشيء قول عمر : وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ (بِعَمِّ نَبِيِّنَا) ولم يقل بالعباس !!

٢. الا يشير لك بشيء قول العباس : (وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك)

واضحٌ لكل من يفهم اللغة أنّ مناطَ الحكم هنا هو النبي ﷺ بمكانته وجاهه عند الله سبحانه وتعالى فقد التقطَ تلكَ الاشارةَ العباسُ وقال : "لمكانتي من نبيك" ، أيْ: ليس لشخصي.

ولو سلمنا – جدلاً – أنّ تَرْكَ عمرٍ للتوسّل بقبر النّبي ﷺ بمعنى النهي فالجواب : من ثلاثة أوْجهٍ :

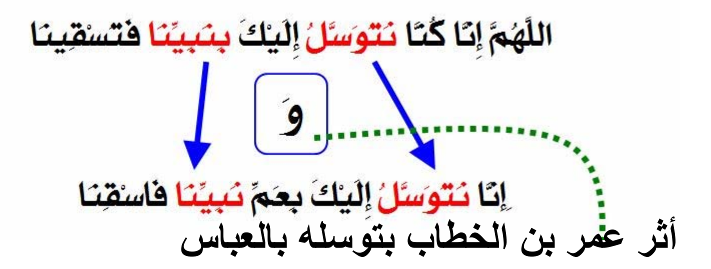
(١) فتح الباري (٤٧ : ٢)

١. معارضٌ بعمل الصحابة كما ثبت عنهم كأبي الدرداء وعثمان بن حنيف مع القبر الشريف وعائشة رضي الله عنهم مع كُوّة فوق لقبر

٢. التركُ لا يُساوي النهيَ بالمطلق وإنما فيما فعله وتركه او ما يقوم مقام ذلك كما سأبين لاحقا ويخرج من مفهوم الترك إذا كان عدماً بدعى عدم الفعل أصلاً وكونه شيء غير موجود.

وروى ابنُ أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الداري وكان خازن عمر قال أصاب الناس قحطٌ في زمن عمر فجاء رجلٌ (بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة) إلى قبر النبي ﷺ فقال يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا)[١]

(١) (الفتح ٢/٤٩٥)



أثر عمر بن الخطاب بتوسله بالعباس

الحديث عند البخاري : اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا

تحرير محل النزاع....

عند مناقشة استدلالهم يتين في كثير من الأحيان عدم معرفتهم في محل النزاع مما يطيل امد المناقشة وينتهي بجدل بيزنطي لا يفضي إلا إلى تمكين الجهالة وتأسيس عليها حكم يغالط أصول الفقه بل يغرق في المغالطات المنطقية لمصادرة قول المخالف وايهام من حوله بأُمور ليست متنازع فيها أصالة كمثل: طرح حُجّة يتطلب استخدامها أن يكون استنتاجها صحيحًا ؛ وهي صحيحة في نفسها لا يختلف عليها مسلمان !! فتجاهُل القضية يلجأ اليها من حجته ضعيفة فيصرف الانظار عن القضية الأساسية

فمثلا : يصدّرون قولهَم بالآية الكريمة {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ} . وهذه ليست محل نزاع ؛ فليس بين أهل السّنة ولا بين الفرق الأخرى ، فالجميعُ مطبقٌ عليها وحتى يدركوا ويعوا ما يقولون نؤكد لهم أنّ من خالف الاية فهو مشرك لا محالة قولاً واحداً .. فلا داعي لهذه لأنها ليست محل النزاع !!

ثم نتساءل هل يوجد مسلم يدعو بذلك معتقداً ومُستحّلاً ذلك في قلبهِ فلا أحدٌ يقوم بهذا أصالة .. فإن وجدتم ذلك الشخص معتقداً مستحلاً

بقلبه فدلونا عليه! .. حتى نشقَّ على قلبه ؛ ونستخرج ذلك منه ؛ علماً أن هذا من خصائص الربوبية يوم تبلى السرائر ولن تستطيع لو أحضرت كل التكنولوجيا الحديثة لانتزاع ذلك لَمَا أفلحتَ ولن تُفلِحَ أبداً !! لذلك لهذا الاعتبار ومن هذا الباب ليست عقدية

وقد قعّد علماءُ السّنة قاعدة أصولية عظيمة لو أخذت بها الحشوية لما جنحت إلى التكفير كما هو حال الخوارج...!!

قاعدة : العبرة بالمقاصد والنوايا لا بالمآلات والألفاظ.

لذلك هي فقهية بالكامل وتجدها في كتب الفقه تحت باب الردّة !!

والمغالطة المنطقية الثانية دائماً يقعون بها : استدرار المشاعر تجاه قضية أكثر شمولاً وهي "مغالطة الرنجة" بإخفاء الاثر من بعض النصوص وتوجيه الجمهور إلى نتيجة زائفة عمداً بتخطيط مُسبق لصرف الاهتمام عن محل النزاع .

ومنها مغالطة "العلة الزائفة" : بمحاولة المغالِط تزييف الحجة عبر ربط القضية بعلة غير صحيحة ليصل إلى نتيجة خاطئة وسنناقشها في هذا الجزء :

إنّ الشرع يقوم بتحريم بعض الصور الظاهرة دون الحاجة إلى سؤال الفاعل عن نيته لعظم بشاعتها واستقباحها؛ فيسقط عليها الأحكام الخمسة في تناول بعض الصور فنقول حرامها حرام ومباحها مباح ...

فمثلا من يطوف في القبر –حتى لو كانت نيتُه حسنةً– فهذا حرامبلا شك؛ فنوجهه بـ"لا تفعل" ولا يُقال له أنت مُشركٌ (!!)، وقد يُعذر بالجهل لأن أغلب من يقوم بهذا جهلة .

وأعجبني قول الشيخ الألباني لمّا سألوه عن حال من يطوف حول القبر من بعض العوام ؛ فأجاب : من أهل الفترة !! ولم يتهمهم بالشرك كما يفعل باقي المتطرفين.. للاسف

ولو فرضنا أنّ من يقوم به أصرّ على فعل الحرام بعدما بيناه له ما جهله؛ واقمنا الحُجة عليه؛ فأزلنا سبب العذر وهو الجهل!!، فمنهج أهل السّنة لمن فعل ذلك الحرام مصراً عليه كذلك : لا يكفر. فنحن لا نكفّر بالإصرار كالخوارج ، .

إنّ محل النزاع في قصة العباس هو تقديركم لمضاف لا يتعيّن...!! كما سيأتي ولعلّ هذا عمدة النزاع

حتى اختصر الكلام : فقولهم أنّ التقدير هو : (الدعاء) في حديث عمر والعياس رضي الله عنهما والحق انه لا يستقيم إلا بـ"المكانة والمنزلة والجاه"

ولذا فإنّ أئمة أهل السّنة قد توسّلوا به ﷺ وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل والإمام الشافعي عند قبر أبي حنيفة ... وغيرهم...

قال ابنُ حجر :

ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة [١]

أما تعيين المقدر عندنا أهل السّنة هو: (المكانة) وهذه مسوّغاته مستفاد من قواعد وأصول الفقه ، فيقال الحكم الفقهي من القصة هو: -

١. جواز التوسل بغير رسول الله ﷺ من آل البيت عموماً

٢.جواز التوسل بغير رسول الله ﷺ من الصالحين عموما

٣.جواز التوسل بغير رسول الله ﷺ بالمفضول بوجود الأفضل

وذلك :

(١) (فتح الباري(٢/٤٩٧)

قاس عمر بن الخطاب رضي الله عنه حكم الجواز بتصدير المقيس به لقطع قول من أراد أن ينكر عليه من الصحابة (إذ أن هذه من النوازل بعد موت رسول الله) فتصرّف عمر بناء على هذا القياس .. لذلك لم يرد أن أحداً من الصحابة قد أنكر عليه !

ومن هذا القياسِ نلتقطُ بعضَ الإشارات :

تقديم الخيرية على الأفضلية

١. قاس عمر بالعلة الموجبة (عمّ نبيك) بجامع مشترك في العليّة للخيرية في النسب الشريف فقدّمه على الأفضلية وهي متوفرة في غير العباس من الصحابة فمنهم عمر نفسه وعثمان وعلي....

٢. قاس عمر الذات على الذات دون الإلتفات إلى الفارق (ميت وحي) لانه اعتبر هذه العلة غير مؤثرة .وهو ما رجّحه الإمامُ أحمد في رواية نقلت عنه والعز بن عبدالسلام والشوكاني !

ضابط العلة من رواية العباس نصاً (لمكانتي من رسول الله) تُقدّمُ على التقدير أو على أيّةِ علة مستفادة من دليل خارجي . فالمنصوص عليه ينسخ ما لا نصّ فيه ، ولا يصار إلى علّة أخرى إلا في غياب عّلة صريحة

منصوص عليها من فهم الصحابة مضبوطة كقول العباس (بمكانتي- عند نبيك) والمكانة هي المنزلة والجاه.

تقدير مضاف غير متعيّن

تقديرُ مضافٍ غيرِ مُتعيّنٍ مع وجود نصّ يُفيد ذلك هو تعسفٌ وافتئات على النص في غير محلهِ ؛ وتجرؤٌ على فهم السلف ، وإلا فهو تقديمُ العقلِ على النصّ؛ وهذا مرفوضٌ عند أهل السّنة.

فالحَشَويّةُ قدّروا "الدعاء" لبيان وجه العلّة وهذا يمتنع بوجود علة منضبطة ذكرها العباس (مكانته) ، فلا يُصار إلى التقدير البتة ما دامت العلة متوافرة وظاهرة ، وعليه؛ فيقدّم النقلَ على العقل.

فقول الحشوية بالمضاف أمرٌ يمتنعُ حصولُه من الميّت، ويحصل من الحيّ فلا يستقيمُ لتنصيص العباس هذه العلّة.

فقول الحشوية بالاضافة يكون كالتالي :

"إنا كنا نتقرّب إليك بطلب الدعاء من نبيّك"، وقد تعذّر ذلك فتقرّبنا إليك بطلب الدعاء من عمّه خطأ بيّن ولا يقبل في أصول الفقه

والصحيح :كما هو قول أهل السُّنة:

" إنا كنا نتقرّب إليك بمكانة نبيّك، وإنا نتقرّب إليك بمكانة عمّه

لذا ؛ فقول عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ ليس من باب الإخبار ؛ وإنما من باب الدعاء. والمعنى [(١)] : اللهمَّ إنَّا كُنا نَتوسَّلُ بِنَبيِّكَ فَتَسْقِينَا، فإنا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ فاسْقِنا وقول العباس (لمكانتي من نبيك) قطع بمعقولية المعنى [(٢)] اي مدرك علته او الحكمة منه ، فبيّنت الشّريعة حكمته، أو استنبطها الفقهاء بما يمكن الوصول إلى معرفته بمسالكه المعروفة كالإجماع والنّصّ والسّبر والإشارة والمناسبة وأفضت علته واضحة لا لُبس فيها.. فقدمنا الشرع على العقل بخلاف الحشوية قدموا العقل!

---

(١) كما في البخاري (١٠١٠)

(٢) معقولية المعنى للنص إذ انّ الأصل التعليل والمسائل التعبدية قليلة في شرعنا كما بيّنه علماء الأصول. فهو من جنس يقبله العقل ويمكن تصوُّره أو إدراكه وتصديقه ، وما يقبله العقل يكون معللاً ومعروف الحكمة منه.

ومعنى التّعبّدية: الوقوف عند حدّ الشّارع فيه.أي : قف حيث وقف الشرع

استدلالهم بلفظ "كنا" بأنه أغلق باب التوسل

قولُهم هذا لا يستقيم أبداً مع أصول اللغة فضلاً عن أصول الفقه كما بيناه آنفاً. فيقولون أنّ عمرَ أخبرَ ذلك ! ، مردودٌ عليهم قولاً واحداً، فالعبارة سيقت سياق الدعاء ولم تكن فيها إخبار للناس؛ وكيف يخبرهم وكلُهم يعلمون ذلك !؟ . هذا عبثٌ لا يقبل من شخص مثل عمر! .. فإذا تقرر فساد هذا القول فلم يبقَ أن يكون إلا إخبار لله وهذا سوء أدب لا يمكن لعمر ان يخوض فيه كذلك.. وعلى قائلهِ التوبةُ من هذا التصرف بما لا يليق بحق الله ولا حق عمر(!!)

ما فعله عمر هو القياس كحكم تشريعي

إذن : الغرض منها ردُّ واقعةٍ غيرِ منصوصٍ عليها لم يأتِ فيها دليلٌ خاصٌّ إلى واقعةٍ منصوص عليها تسمى بالأصل؛ لاتفاقهما في العِلَّة، والعلة جالبةٌ للحُكْم.. لذلك توافرت أركان القياس كاملة ؛ فحُقّ لعمر أن يجوّز التوسل بعم النبي..

- بالقياس المساوي: وهو تساوي حكم المقيس والمقيس عليه
- وقياس الدلالة وهو اتفاق المقيس والأصل في العلة، ولا يحتمل عند أهل السّنة إلا أن يكون قياساً جلياً لا خفياً، فالعلة التي ضبطها النصُّ مقدمةٌ على أي تقدير داخلي او خارجي.

والمراد : من الحديث يكون كالتالي كما فهمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

"كما أننا كنا نتوسل بنبيا؛ فإننا نتوسل اليوم بعمه قياسا على ذلك"

واو الوصل بلاغياً تعضد من الجملة الانشائية

ويعضد مما سبق "واو" الوصل في توسله بالعباس ..

وهذه تهدم نظريهم في أنّ الجملة إخبار! رأسا على عقب .. أقولُ : ولو رويت بلا واو لربما خالجنا الشك فيها ! لتكون فصلاً ؛ فتقطع معنى عن معنى ، والحقُّ : أنها واو الوصل وليس واو الفصل: والمراد ربط معنى بمعنى بأداة لغرض بلاغي.؛ فكل أداة تصل بين المفردات أو الجمل ليستقيم المعنى

ومن خصائص الوصل هنا اضافة الى ربط معنى بمعنى : -

1 . إن واو الوصل : تفيد أن بينهما جهة جامعة؛ أي: مناسبة تامة، لذلك لم يكن مانع من العطف واستعمال واو الوصل لغرض بها تعليل

2 . تعيّن العطف بواو الوصل يؤذن بهذا القول : أن المناسبة بينهما أظهر فبينهما كمال الاتصال .. فيُقال في هذا المواضع: إن بين الجملتين كمال الاتصال

ويشهدُ لهذا الكمال قولُ العباس : "وقد توجه القومُ بي إليكَ لمكاني من نبيكَ "

ويعضده الآثار المحيطة في هذه المعنى التي تصلح للمتابعة والشواهد:-

[١] . إنّ عمرَ رضي الله عنه قال : فاقتدوا أيُّها الناسُ برسول اللهِ ﷺ في عمّه العباسِ واتخذوهُ وسيلةً إلى اللهِ

[٢] . وكذا فعل أبو بكر رضي الله عنه فكان أبو بكر الصديق إذا بعث جندًا إلى أهل الردة خرج ليشيعهم، وخرج بالعباس معه قال يا عباس استنصر وأنا أؤمّن [١] . قال أرجو أن لا تُخيبَ دعوتُك لمكانك من نبي الله -صلى الله عليه وسلم-

(١) من التامين على الدعاء بقوله آمين

[٣] . وكذا فعل خازن عمر، فقد روى ابن أبي شيبة[١] بإسناد صحيح عن أبي صالح السمان عن مالك الداري قال: "أصابَ الناسَ قحطٌ في زمنِ عمرَ فجاءَ رجلٌ إلى قبرِ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- فقال: يارسولُ اللهِ استسقِ لأمتكَ فإنهم قد هلكوا فأتي الرجلُ في المنامِ فقيل لهُ إئتِ عمر، فقل له يستسقي للناس [٢]

(١) في "مصنفه" (٦/ ٣٥٦) والبخاري في "التاريخ الكبير" (٧/ ٣٠٤) - مختصرا - والبيهقي في "الدلائل" (٧/ ٤٧) ، وابن عساكر في "تاريخه" (٤٤/ ٣٤٥)

(٢) حديث صحيح. صححه القسطلاّني (المواهب اللدنية ٣/ ٣٧٤)، وصححه الحافظ ابن كثير (البداية والنهاية ٧/ ٩٣) وقال رحمه الله في مسند الفاروق ١/ ٢٢٣) : إسناده جيد قوي ، وصححه ابن حجر (الفتح٢/ ٤٩٥) ، وقال الحافظ المنذري (الترغيب ٢/ ٤١) : عند قصة أخرى من رواية مالك الدار عن عمر : ورواته إلى مالك الدار ثقات مشهورون، والحافظ الهيثمي (مجمع الزوائد ٣/ ١٢٥) وصححه نسيب الرفاعي (التوصل ٢٤١) وظاهر كلام الحافظ الذهبي انه يصححه كذلك (السير٢/ ٤١٢)

[٤] . الفعل : (الاستغاثة) به يوم القيامة حديث استغاثة الانبياء به [١]
والاستغاثة هي توسل وزيادة وكذا التبرُّك بجامع مشترك هو الطلب بتفاوت شدة الافعال [١]

(١) عن أبي هُرَيرة – رَضيَ اللهُ عنهُ – قال: ...يجمع الله النَّاس – الأولين والآخرين – في صعيدٍ، واحدٍ،، يُسمعهُم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمسُ فيبلغ النَّاس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول النَّاس: ألا تَرون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون مَن يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعضُ النَّاس لبعضٍ،: عليكم بآدم!!، ... فيأتون نوحاً ... فيأتون إبراهيم ... فيأتون موسى ...فيأتون عيسى ..، اذهبُوا إلى غيري، اذهبوا إلى مُحمَّد ﷺ!!، فيأتون مُحمَّداً ﷺ فيقولون: يا مُحمَّد، أنتَ رسولُ الله، وخاتمُ الأنبياءِ، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحنُ فيه؟ فأنطلق، فآتي تحت العرش فأقعُ ساجداً لربي – عَزَّ وجَلَّ –، ثمّ يفتح الله عليَّ من محامده وحُسن الثناءِ عليه شيئاً لم يفتحه على أحدٍ، قبلي، ثم يقال: يا مُحمَّد، ارفع رأسك، وسل تُعطه، واشفع تشفَّع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا ربِّ، أمتي يا رب!!، فيقال: يا مُحمَّد، أدخل من أمتك من لا حسابَ عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجَنَّة، وهم شركاءُ النَّاس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده إنَّ ما بين المِصراعين من مصاريع الجَنَّة كما بين مكةَ وحِميَر، أو كما بين مكة وبُصرى) البُخاريّ – الفتح (٨/٣٤٨ – ٣٤٨)

فاذا انتُهك الفعلُ (سلباً او ايجاباً) تجرّد عن اسمه واطّرد في وصفه.. فعلم منه جنس العمل ووصف الفعل ؛ لا اسم الفعل !

فلا معنى أن يسمحَ به في الاخرة ويمنعه في الدنيا !

والضابط هنا الإعتقاد الصحيح بأنه محل التّسَبُّب لا محل التأثير.. كما هو ظننا في الانبياء... فلا مؤثر في الوجود إلا الله عزوجل ، وأن الأسباب لا تؤثر بذاتها وأن النتيجة تحدث عند اجتماع السبب والمسبب وليس بهما.

وعليه ؛

نجيب على أكثر سؤال يرد من الحَشَوية : لماذا لم يتوسل عمر رضي الله عنه بذات النبي ﷺ ولم يرد عن أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم فعل ذلك ، فالجواب :

(١) كان تحاشياً منهم عما يخشى أن يعلق منه في أذهان الناس إذ ذاك وهم قريبو عهد بالتوسل بالأصنام شيء

---

(١) يجمعهم جذر معنوي واحد لأن صفة الفعل كلٌ على حدة تتفاوت في درجة الحصول على مقصد الأفعال هذه وصفات المعاني لها احكامها تسمى بالمعنوية

(٢) وكذلك كان ما يشغلهم لبناء الدولة القوية بعد وفاته ﷺ فأبو بكر انشغل في حروب الردة وعمر في الفتوحات الاسلامية

(٣) لم يحصل عندهم جدب شديد يحتاج الى توسل فقصة العباس اقيمت في عام الرمادة وتعني شدة الجدب فقيام المقتضى استدعى ذلك

(٤) ثبت عن أبي أيوب النصاري وعثمان بن حنيف انهم فعلوا ذلك كما بيناه آنفاً.

ثانيا : ثم نحن نعيد الكرة عليهم من جنس سؤالهم لعلنا نجد إجابة لماذا ترك عمر رضي الله عنه التوسل بالأسماء والصفات أو لماذا لم يتوسل بعمله الصالح او عمل من هو أفضل منه العباس نفسه ؟ فترك هذا المتفق عليه واختار التوسل بالعباس بعد ان قاسه بالتوسل بالنبي

ولا يرى أهل السّنة ان هذا إلا لبيان الجواز وبيان مشروعية القياس فيما استجدّ عليهم من نوازل بعد عصر النبوة.. واختيار عمر التوسل بالعباس ليس فيه تفصيل نوع على نوع في التوسل أو تقسيمه لمشروع او غير مشروع... هذه أصول الفقه على منهج أهل السّنة والجماعة..

لذلك ثبت عن الامام احمد ان أجاز التوسل برسول الله حيا وميتا وكذا قاس الامام الشافعي توسله بأبي حنيفة..وغيرهم من أئمة السنة كالمحدث ابن حيان ...

وهذا كلام الذهبي تلميذ ابن تيمية في ذلك من أوضح الواضحات...

والخلاصة :-

إن سؤال النبي وغيره من الصالحين هو الوثوق من أنه قادر على التَسبُّب به لا مؤثرا فيه ومنه قول ربيعة بن كعب خادم رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة

فلا يأتي حشوي ويقول اذا سألت فاسأل الله !! فهذه قيد اعتقادي واستحلال قلبي لا يمكن تعميمها بدون هذا القيد وإلا اتهمنا الصحابةَ بالشرك ! باتيانهم رسول الله طلباً للاستغفار... فلقائل أن

يقول : لماذا لم يستغفروا الله مباشرة ؟! بلا واسطة، ولماذا أخبر رسول الله ﷺ عمر رضي الله عنه اذا رأيت أويس القرني فاطلب ان يستغفر لك ؟[1]

والصحيح ان نقول يمنع التوسل بقيد لازم وهو إعتقاد انه المؤثر وليس القادر على التسبُّب لمكانته عند الله.. إذا سلم الإعتقاد هذا فالتوسل مشروع...

ولا يعتبر جهل الاخرين بذلك الا التنبيه عليهم بالصور المحرمة لتصحيحها لا إتهام الناس بالشرك بلا مبرر او تعميمه بغير وجه حق..

فليس كل من ذهب ليدعو الله عند القبر هو مشرك او ذهب ليعبد القبر!! إذْ أنّ ذلك من الُمجرّبات التي ساقها أهلُ العرفان وأجازها أئمة المذاهب الأربعة في قواعد وضوابط المذهب..

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٤٢)

أثر عثمان بن حنيف

مع أنّ العلّة للتوسل واضحةٌ في حديث الأعمى بأنّ النبي ﷺ بحقيقته (الرحمة)[1] إلا أنّ الحَشَوية أرادوا اقحام الترجيح على النص بأمر خارج بقولهم العلة للتوسل هو الدعاء ! كما مر آنفا

(١) (لَقَد جاءَكُم رَسولٌ مِن أَنفُسِكُم عَزيزٌ عَلَيهِ ما عَنِتُّم حَريصٌ عَلَيكُم بِالمُؤمِنينَ رَءوفٌ رَحيمٌ)

وهذا القول لا يستقيم أبداً مع الُمرجّحات التي تُصحّح من داخل النصّ ولا يصار الى خارجه إلا إذا تعذّر الوُثوقُ من علّة النص والا فهذا يعتبر استدراكاً على الشرع في خلق علّة لم يقلْها. ثم بذاك تَحوُّل النصّ من معقول المعنى بنص ثابت الى معقول المعنى بوهم صحة المعلول بالنص على القرائن او المفهوم وما يجري نحوها.. لذا تُقدَّم العلّة المنصوص عليها على الشبهة التي تجري على الحكم فهي لا تؤثر في ثبوت مشروعيته او عدمه ..وقد شرحته آنفاً.

وهذا ما قاله علماء الأصول كالآمدي والغزالي ومن الحنابلة القاضي ابي يعلى ومن المعتزلة القاضي عبد الجبار.

وعليه فإنّ الأصول تشهد لنا في جواز التوسّل به ﷺ من خلال روايات صحيحة لحديث الضرير هذا . ولان الاصول تقتضي أنْ يجريَ القياسُ على سَنن القياس المتفق عليها لأن ما كان متفقاً عليه كان أبعد من الخلل !

ومبحثي في الترجيح وفق الاصول كالتالي :

- الترجيح بنص عام عمل به
- الترجيح بما لا يقبل نسخا

- الترجيح بما ثبت عليته بالنص
- الترجيح بالعلة المقطوعة في النص
- الترجيح بالوصف الثبوتي على علة غير موصوفة
- الترجيح بالعلة التي تعمّ معلولهَا
- الترجيح بعلة وإنْ وافقها خبر ضعيف
- الترجيح بالعلة التي يكون فيها الظن ضعيفاً تسقط أمام العلة التي يكون فيها الظن أقوى

وعليه نقول :

الترجيح لعلة المناسبة

ذهب الحشوية الى علة المناسبة وهي في سياق الحديث أنه طلب الدعاء وان النبي قصد به التوسل بدعائه

وهذا مدفوع -أصلاً- كونه دعا له وعلمه فما فائدة التعليم إذا كان القصدُ الدعاءَ ؟!

الترجيح بنص عام عمل به

بشاهد رواية عثمان بن حنيف للصحابة الذين يُفترض أنهم سألوه فافتى لهم بجواز التوسل بعد مماته ؛ أو وجدهم حيارى فيما سوف يعملون لإنهاء انقطاع المطر وما يلحقه من جفاف. فاخبارهم بما حصل يفيد التعلق الثبوتي في فعله أو فعل من قال لهم سواء من الصحابة أو التابعين وإلا ما نفعُ ذكرُه وروايته لهم بعد مماته ؟ وكيف لا وقد روى الطبراني بسند صحيح أنه رضي الله عنه علّم رجلاً أن يدعو بهذا الدعاء في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه،،!!

ولو كان فهم هذا الصحابي أن التوسل به ﷺ خاص في حياته ماعلمه ذلك .

الترجيح بمرجح ما لا يقبل نسخا

والشاهد أنه يتفق مع الأصل الأول في الإسلام وهو القران بدليل الآية الكريمة.

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا}

فعَطْفُ طلبِ الاستغفار مع استغفار الرسول جرى مجرى الشرط باستخدام الأداة (لو) ، والحاصل انّ جواب الشرط : "لوجدوا" الله تواباً رحيماً.

الترجيح ما ثبت عليته بالنص

فالنصُّ مقدمٌ على أيّ مصدر تشريعي كان حتى الإجماع إنْ وُجِد او القياس والاستحسان والاستصلاح ... وهذه الأقيسة يُفترض أنْ تكونَ في خدمة النصّ لا أنْ تتعسف باختلاق علة للنص !!

وكيف إذا علمنا أنّ علتَة ثَبَتَتْ بالإجماع . فقد نقلنا المعتمدَ في المذاهب الأربعة اتفاقاً على ذلك ولم يشذّ إلا ابنُ تَيميّة -كما هو معلوم- وما حصل من محاكمة من علماء عصره ثم سجنه ومات محبوساً بسبب تحريم زيارة الرسول لغرض التوسل به

ثبت التوسل من هذا الحديث بما علية النص عند أهل السّنة ولا ريب وتتضح مما يلي :

الترجيح العلة المقطوعة في النص

ويفترض من القطعية ان تكون على أقل تقدير قريبة من الظنّ الغالب وهو محاذٍ لليقين بوجه من الوجوه بخلاف الظن العادي او الذي يقرب من الشك بوجه من الوجوه . فتقدم العلة المقطوعة عن العلة المظنونة ان وجدت

وهنا الظنية هو الدعاء كما يدّعي الحشوية لأنها مناسبةٌ قد دُفعت بتعليم النبي له وعدم اقتصاره على الدعاء كما بينت آنفاً.

فالقياس الذي يكون مسلك علته مظنوناً لا يُقدم على علة موصوفة ومفسرة بالنص : فتُسقِطُ غلبةُ الظن بغلبة الوصف، على الرغم أنّ علّةَ

المناسبة التي يتحدثُ عنها الحَشَويّة علّةٌ ضعيفةٌ لا تؤخذ بالحسبان كما ذكرنا بقوة مؤثرة في النص ألا وهي تعليمه كيف يتوسل وعدم اقتصاره على الدعاء..!! فحسب.

والعلة المقطوعة من النص : (بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني توجهتُ بك)

الترجيح بالوصف الثبوتي على علة غير موصوفة

فإذا وُصفت بموجود في الحال (نبيك .. وبك) تُقدّم على موجود في ثاني الحال (هذا اذا اعتبرنا أنّ القياسَ بالمناسبة قوي هنا كما يدّعون والحق انه ضعيف كما مرّ .)

وهنا العلة الموصوفة نبيك اي بسبب نبيك ووصفها بالرحمة.

الترجيح بالعلة المفسرة

مع ذكر اسمه يكون تخصيص موصوف لكاف المخاطبة نبي(ك) و ب(ك) بنبيك ... وبك؛ هي : مُفسّرة للعلة ومُقتضِيَةٌ لثبوته. وهذه العلة الُمفسّرة تسقط العلة المجملة (طلبه الدعاء)!

الترجيح بالعلة التي تعم معلولها

ولا يَشكُّ أحدٌ أنّ سيدَنا وشفيعَنا محمداً بركتُه تعمُّ على سائر الممكنات والمحدثات

١. فبركته قبل خلق العالم : فقد ثبت ذلك حقيقة في حديث صحيح لولاه ما خلق العالم وهو حديث صحيح [١] وقال ابن تيمية عقبه: ((فهذا الحديث يؤيد الذي قبله وهما كالتفسير للأحاديث الصحيحة))!

(١) (مجموع الفتاي ٢/١٥١)

يقول البوصيري رحمه الله (لولاه لم تخرج الدّنيا من العدم)

ويعني به الحديث الصحيح الذي رواه الحاكم : قال رسول الله ﷺ: ﴿لما اقترف ادم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لمّا غفرت لي، فقال الله: يا ادم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال: يا رب لأنك لما خلقتني ونفخت فيّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا ادم، إنه لأحب الخلق إلي، ادعني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك﴾

وفي رواية (وآدم بين الروح والجسد) قال الترمذي حديث حسن صحيح (٣٦٠٩)

هذا الحديث له طرق تشد بعضها بعضا في التحسين والصحة:

١. صححه ابن العربي في العواصم من القواصم (ص٢٠٦)

٢. حسنه ابن عدي في الكامل (٥/٢٧٩) وقال فيه عبد الله بن شقيق ما بأحاديثه إن شاء الله بأس...

٣. حسنه ابن تيمية في كتابه الرد على البكري (ص٦٠) وقال :ثبت عن ميسرة

٤. سكت عنه الحافظ المزي في تهذيب الكمال (١٠/٥٣) وقال :اختلف فيه على عبد الله بن شقيق...

٥. حسنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٨٤) وقال :إسناده صالح

٦. حسنه ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٢٩٨) وقال:إسناده جيد

٧. حسنه الحافظ المناوي في تخريج أحاديث المصابيح (٥/ ١٢٤) وقال :رجاله رجال مسلم

٨. حسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٦) وقال رجاله رجال الصحيح

٩. حسنه الحافظ البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٧/٨) وقال: له شاهد

١٠. حسنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في الاصابة (٣/ ٤٧٠) وقال :إسناده قوي لكن اختلف فيه على بديل بن ميسرة ، وعن رجل قال : قلت يا رسول الله ، وأخرجه أحمد من هذا الوجه وسنده صحيح...

٢. بركته بعد موته :ولا ينقطع بموته في حياته البرزخية لحديث صحيح صححه جمع من الحفاظ والمحدثين منهم (الحافظ العراقي في طرح التثريب ٣/ ٢٩٧) وقال إسناده جيد.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤) رجاله رجال الصحيح. وصحح السيوطي كما في الخصائص ٢/ ٢٨١)

حياتي خير لكم، و[مماتي] خير لكم تُحدثون ويُحَدَّثُ لكم.... وتعرضُ عليَّ أعمالكم، [فما وجدتُ خيراً، حمدتُ اللهَ.. وما وجدتُ غير ذلك استغفرتُ لكم.

الترجح لعلة وافقها خبر ضعيف

واذا قالوا أنهم لا يصححون حديث الطبراني عن عثمان فان هذا يُردّ بالأصول ايضا

فالخبر الضعيف ليس ضعيفا في ذاته اذا شهدت له الأصول وانما لعلة خارج النص من قبيل السند واغلب الضعيف يكون مختلفاً فيه كما في حديثنا هذا لهذا الاحتمال يسقط الاستدلال.[1]

الترجيح بعلة الظنّ الغالب

العلة التي يكون فيها الظنُّ ضعيفاً تسقط أمام العلة التي يكون فيها الظن اقوى

---

(١) فعلى فرض انه ضعيف :

هذا معتمد أهل السنة في المذاهب الأربعة في جواز العمل بالضعيف في فضائل الاعمال وهذا منها فهو حث على الصلاة على النبي وهي اصل من اصول الاسلام ولا يوجد ما ينقص من متنه او يطعن في معناه ويجري مجري حديث (إذا نسي الشيء، أو أراد ذكره) الذي صححه ابن القيم في جلاء الافهام وعدها من فضائل الصلاة على النبي...

وحتى ولو فرضنا انه موضوع !!

فإنّ الحافظين ابن عبد البر وابن حجر العسقلاني قد أجازوا رواية الموضوع إذا لم يترتب عليه ثواب .. وهذا الحديث يخلو من ترتيب أيّ ثواب.

وكيف لا وهناك معاضدة واضحة وجلية لاية كريمة .... كما سيأتي.

أثر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنـها

أثـر عائـشة رضي الله عنهـا " كـوة فـوق القـبر " رواه الـدارمي في سننه [1]

حدثنا أبو النعمان ثنا سعيد ابن زيد ثنا عمرو بن مالك النكري حدثنا أبو الجوزاء أوس بن عبد الله قال: قحَط أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة، فقالت: انظروا قبر النبي صلى الله عليه وسلم فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، قال: ففعلوا، فمطرنا مطراً حتى نبت العشب، وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمي عام الفتق.

السند بالتسلسل

حدثنا أبو النعمان حدثنا سعيد بن زيد حدثنا عمرو بن مالك النكري حدثنا أبو الجوزاء أوس بن عبد الله

١.ابو النعمان (محمد بن الفضل يعرف بعارم)

لم يحدث بعد اختلاطه اخر عمره ولم يحمل عنه رواية منكرا وحديث عائشة قبل اختلاطه بشهادة الذهبي...:

---

(١) "٤٣/١"

وهو شيخ البخاري روي له في صحيحه أكثر من مائه حديث..

قال الذهبي في السير : لم يحدث عنه ولم يروى عنه بعد اختلاطه وقال في الكاشف (٣/ ٧٩) بأنه تغير قبل موته فما حدّث.

قال الدارقطني : تغير بأخرة وما ظهر له بعد اختلاطه حديث منكر وهو ثقة.

دعواهم بالتضعيف انه حُجّة مَنْ يعلم على مَنْ لم يعلم دعوى ساقطة لان الذهبي يعلم قصة الاختلاط فرواها في السير

دعوى تضعيف ابن حبان له رد عليها الذهبي : (وقال الدارقطني تغير بآخره وما ظهر له بعد اختلاطه حديث منكر وهو ثقة.

قلت (الذهبي) : فهذا قول حافظ العصر الذي لم يأت بعد النسائي مثله فأين هذا القول من قول ابن حبّان الخساف المتهور في عارم فقال اختلط في آخر عمره وتغير حتى كان لا يدري ما يحدث به فوقع في حديثه المناكير الكثيرة فيجب التنكب عن حديثه فيما رواه المتأخرون فإذا لم يعلم

هذا من هذا ترك الكل ولا يحتج بشيء منها ...قلت (الذهبي) ولم يقدر ابن حبان أن يسوق له حديثا منكرا فأين ما زعم بل مفرداته)[1]

أقرّ الحافظُ العراقيُّ الذهبيَّ في دفعه لجرح ابن حِبّان[2]

و قال الحافظ ابن الصلاح[3] : ((عارم محمد ابن الفضل اختلط بأخرةٍ، فما رواه عنه البخاري ، ومحمد بن يحيى الذهلي، وغيرهما من الحفاظ ينبغي أن يكون مأخواً عنه قبل اختلاطه . اهـ .

٢. سعيد بن زيد :

قال الائمة انه من رجال مسلم واخرج له البخاري تعليقاً في الطهارة..ووثقه كل من : ابن سعد، والعجلي، سليمان بن حرب وابن معين وابن عدي ووثقه الذهبي

. قال عنه البخاري والدرامي: صدوق حافظ[4]

---

(١) ميزان الاعتدال (٢٩٨ / ٦)

(٢) التقييد والإيضاح(ص٤٦١)

(٣) في مقدمته (ص٤٢٦)

(٤) (التاريخ الكبير ٣/ ٤٧٢ت١٥٧٦ و انظر التهذيب: ٤/٣٢-٣٣)

وقال الإمام أحمد : ليس به بأس[1]

حسنه ابن حجر قال صدوق له اوهام ورتبته حسن لانه مختلف فيه كما

حسنه واخرج له البوصيري

صححه الحاكم في المستدرك

٣. عمرو بن مالك النكري

وثقه ابن حبان وعده في ثقاته

قال ابن حجر صدوق له أوهام وهذه العبارة عند ابن حجر معروفة من

انه من رتبة الحسن

حسنه المنذري

حسنه الهيثمي

قال الذهبي : ((بصري صدوق))

وثقه ابن معين (ثقة : سؤالات الجنيد ت ٧١٠)

٤. أبو الجوزاء أوس بن عبد الله

---

(١) (العلل (٣٤٦١)

اختلفوا هل سمع من عائشة والجواب نعم سمع لان مسلم روى له عن عائشة واخرج له أبو نعيم في (الحلية" (٣/ ٧٩) (وكان رسولي يختلف إلى أم المؤمنين غدوةً وعشيةً ...)

وقول البخاري في إسناده نظر، يريد أن أبا الجوزاء لم يسمع من عائشة فقال ابن حجر في "التهذيب" (١/ ٣٨٤) : ((لكن لا مانع من جواز كونه توجه إليها بعد ذلك فشافهها على مذهب مسلم في إمكان اللقاء.

شهادة تاريخية

قد نقله وشرحه كل من :

القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح

الشيرازي المظهري في المفاتيح في شرح المصابيح

الكرماني في شرح مصابيح السنة للإمام البغوي

الغماري في الدر الثمين

حسين سليم أسد محقق مسند الدارمي : ((رجاله ثقات وهو موقوف على عائشة)

وقد ذكره السمهودي في (خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى) : (وذكر أبن النجار أن على الحجرة أي سقفها ثوبا مشمعا مثل الخيمة وفوقه سقف المسجد وفيه أي فيما تحت المشمع المذكور خوخة عليها ممرق أي طابق مقفول وفوق الخوخة في سقف السطح أي سقف المسجد خوخة أخرى فوق تلك الخوخة وعليها ممرق مقفول أيضا وبين سقف المسجد وبين سقف السطح فراغ نحو الذراعين أي بين السقف الثاني لسطح المسجد والأوّل فإنه سقفان كما سيأتي بينهما فراغ نحو الذراعين

وقال أبن رشد في بيانه : (ولقد أخبرني من أثق به أنه لا سقف للقبر الشريف اليوم تحت سقف المسجد) اهـ .

قراءة بلاغية لآية التوسل

في ظلال آية

{وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}

قراءة بلاغية للآية الكريمة سنبحرُ خلالها موافقةً لأهل السّنة في جواز اتيان رسولَ الله ﷺ حياً أو ميتاً طلبا للاستغفار من جنابه العظيم لمكانته عند ربه الكريم سبحانه وتعالى

(١). القاعدة الأولى :

استعمال الفعل في سياق الشرط صار من صيغ العموم

لكل زمان ويعني الدوام والإستمرار.. "لو" اداة شرط وتعني لو وقع ذلك لوجدوا الله تواباً رحيماً... والفعل يعتبر نكرة من تحمله للمصدرية فالمصدر اسم يدل على حدث مجرد من الزمن !!

(٢). القاعدة الثانية :

الفعل الماضي بعد أداة الشرط انقلب مستقبلاً

الأداة " لـو " إن وقـع بعـدها انقلـب مـستقبلاً ...فـإذا أريـد بـها بعـدها الإستقبال فقد يكون ما بعدها ماضي الصيغة ...

وتعـرف "لـو" : انهـا أداة شرط في المـستقبل. والاغلـب هنـا اسـتنبط مـن سريان القاعدة الأولى : "الفعل في حيز الشرط انقلب عموماً" دون حصر في زمن.

مثال: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ}، وكـذلك في هـذه الآيـة "لـو" شرطيـة تـدلُّ عـلى المـستقبل لتعلـق الـشرط بجوابه مع عدم امتناع انتفاء الرحمة وقبول التوبة عن الله بصفاته الكمالية؛ إذ لـو كـان الفعلُ باقياً على زمنه المـاضي لفَسَد المعنى؛ لاستحالة الخوف بعـد مـوتهم ، واسـتحالة نفـي الرحمـة وصـفة التوابيـة عـن الله عـز وجـل. ويتحـول الفعـل مـن الـصيغة الـصرفية إلى المعنـى النحـوي كـما يـدل عليـه ايقاع السياق كما في اسلوب الالتفات كقرينة صرفته من الحال الحاضر الى المستقبل كما في النقطة التالية:

(٣). القاعدة الثالثة :

أسلوب الإلتفات البلاغي

وهو عند عُلماءِ علم المعاني العُدول من لغة المخاطب بضمير "أنت" إلى المخاطب بضمير "هو"، فلم يقل: "واستغفرت لهم" مع المقتضى كان ذلك باستعمل ضمير المخاطب أنت في الفعل "جاؤوك" وعَدَلَ عنها بالرسول إلى طريق الالتفات؛ تفخيماً لشأن رسول الله ﷺ وتنبيهاً على أنّ الشفاعةَ من الوصف والرسالة مستقبلاً.

جامع مشترك في أفعال التوسل

التوسل والتبرك والاستغاثة والتوجه عند أهل السّنة ...

التوسل والتوجه والاستغاثة والتبرك بمعنى واحد عند حدود الجذر كذلك قال الحافظ الفقيه النحوي اللغوي تقي الدين السبكي وقد تبعه على ذلك كل من الكوثري و النبهاني وأحمد زيني دحلان والسمهودي رضي الله عنهم جميعاً ؛ التبرك صورة من صور التوسل بلسان الحال(!) ، بمعنى أنّ مَنْ يتبرك بشعر الرسول ويضعها على عيونه للاستشفاء كناية بتوسله بها من الله طلبا للشفاء.

في قاموس لسان العرب [الجاه] تعني المكانة والمنزلة فيصبح معناها لـ [جاه نبيك]

أي فعل له حكاية ... وتفاصيلها يفترض أن تكون من لوازم ذلك الفعل ونعبر عنه بعبارة (لسان الحال ولسان المقال) ، فالفعل يُعبّر عن حال الفاعل بالتطابق اما لسان المقال وهو في علم الدلالة والمنطق فيطلق على لوازم تلك الحكاية التي نشأت عن ذلك الفعل وتتفاوت قوة اللازمة هذه في الدلالة من (دلالة مطابقة الى دلالة ضمنية الى دلالة الزامية)...

ولتقريب المسألة اضرب مثالا :

الإمام أحمد بن حنبل يجيز التبرك بآثار النبي ﷺ

قال عبد الله بن أحمد: رأيت أبي يأخذ شَعْرة من شَعر النبي ﷺ فيضعها على[فمه] يُقبّلها.ويضعها على عينه، ويغمسها في الماء ويشربه يستشفي به.[1]

ورأيته أخذ قصعة النبي ﷺ فغسلها في جرّة الماء، ثم شرب فيها، ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفي به، ويمسح به يديه ووجهه.

من القصة :

الفعل : (يتبرك) وهو حكاية الفعل وهو لسان الحال

لسان المقال : طلب وتوسل بوسيلة واستغاثة بتلك الشعرة للشفاء فشبهت العرب ذلك ...فقالوا عن الحكاية من الفعل : كأن المتكلم أراد قول : (يا رب اشفني) اي الإستشفاء

(١) هذا الاثر عن الإمام أحمد أخرجه ابن الجوزي بسنده إلى عبدالله ..انظر كتاب(مناقب الإمام أحمد ص**٢٤٢**) وانظر كتاب (مسائل عبدالله ص**٤٤٧**) وأاورده الذهبي نقلا عن عبدالله حنبل انظر (سير أعلام النبلاء **١١/ ٢١٢**)

كالمريض إذا تألم فإنه يقول يا الله ، ويقصد الاسم الإلهي : الشافي وكما الغريق في البحر ينادي يا الله ويقصد الاسم المنجّي ...

والنتيجة من التعسف أنْ ينظرَ إلى الفعل بمعزل عن الحكاية فهي التي تشير لدلالة توضيحية للازم المرتبط منه .

فـ : الطلب والتبرك والتوسل والإستغاثة لازم الفعل فيهم واحد وهو القاسم المشترك الاعظم الذي يبنى عليه الحكم على الحكاية ونسميه المقصد منها، وهو لسان المقال. كما أنهم مُسبّبات لا يوجد فيهم اي تأثير على الاطلاق وانما المؤثر الاوحد هو الله الاعظم كما شرحنا مسألة شهود نقص المسببات.

كما شرحه تقي الدين السبكي (شفاء السقيم ص**١٨٣**)

ومن الحكاية نستفيد ما يلي :

يجوز أن تكون بينك وبين الله واسطة في الدعاء والطلب

لا يحكم على الحكاية بظاهرها حيث أن الصورة للإمام أحمد لمن يشاهده على تلك الحال ليس لها علاقة بشرك الدعاء !! بل القصود منه طلب الدعاء بوسيلة مادية (الشعرة او القصعة) وهي من الذوات (!!) حاشى لامام أهل السّنة.

الواسطة : طلب الاستغفار من النبي

يقولون كيف يُطلب الدعاء من النبي ﷺ هذا في أصله شرك فالسؤال لا يكون إلا الله ؟

والحق أنه ليس شركاً . فقد كان الصحابة يقولون (استغفر لنا يا رسول الله) فلماذا لم يستغفروا مباشرة من الله كما أمر : {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ } {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ } ولم ينهرهم ﷺ.. !! فاين الشرك في ذلك ؟

لماذا اختاروا أن يكون رسول الله ﷺ (واسطة) لطلب الغفران من الله الم يكن بمقدورهم امتثال الامر القرآني ...!! على فهم لظاهر الاية الكريمة .... فالطلب من الرسول ﷺ دعاء واستغفار لمكانته صلى الله عليه وسلم عند ربه الكريم شفاعة لنا في الدنيا والاخرة ...

هل وقع الصحابة بالشرك ؟!. حاشاهم !!

ولا شك طلبهم من رسول الله لأنه رسول الله فيستجاب دعاؤه فطلبهم ذلك لا لأجل الدعاء وإنما لأجل صاحب الدعاء ﷺ

لم ينكر ﷺ عليهم طلب الدعاء والاستغفار منه ولم يستغفروا الله مباشرة بدون (واسطة)(!!)

وقد طلبها خيرةُ الصحابة : (استغفر الله لي يا رسول الله) فليس مثلكم من يرد مثلهم فقد فهموا مراد الرسول ﷺ ومقاصد الإسلام خيراً منكم ، وهو الذي قال فيهم : الله الله في أصحابي..

فهذا عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد وعبد الله بن سرجس وسبيعة بنت الحارث و الحارث بن عمرو السهمي وعبيد ابي عامر وغيرهم ...

ذكر في الموسوعة الفقهية (٤/١٥٦) :ذهب جمهور الفقهاء (المالكية والشافعية ومتأخرو الحنفية وهو المذهب عند الحنابلة) إلى جواز هذا النوع من التوسل سواء في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته)أهـ انظر كتب المذاهب الأربعة كما يلي :

شرح المواهب ٨ / ٣٠٤، والمجموع ٨ / ٢٧٤ والمدخل ١ / ٢٤٨ وما بعدها، وابن عابدين ٥ / ٢٥٤، والفتاوى الهندية ١ / ٢٦٦، ٥ / ٣١٨، وفتح القدير ٨ / ٤٩٧ - ٤٩٨، والفتوحات الربانية على الأذكار النووية ٥ / ٣٦.

(١) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :..رفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر، غير أهبة ثلاثة، فقلت: ادع الله فليوسع على أمتك؛ فإن فارس والروم وسع عليهم، وأعطوا الدنيا، وهم لا يعبدون الله، وكان متكئا، فقال: "أوفي شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا". فقلت: يا رسول الله استغفر لي...(البخاري ومسلم)

(٢) كانت سبيعة بنت الحارث قد وضعت بعد وفاة زوجها بخمسة وعشرين ليلة فتهيأت تطلب الخير، فمر بها أبو السنابل بن بعكك، فقال: قد أسرعت، اعتدّي آخر الأجلين، أربعة أشهر وعشرا، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله! استغفر لي... (ابو داود اسناده صحيح)

(٣) وهذا الحارث بن عمرو السهمي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمنى - أو بعرفات- وقد أطاف به الناس، ويجيء الأعراب،

فإذا رأوا وجهه، قالوا: هذا وجه مبارك، قلت: يا رسول الله! استغفر لي ...(البخاري في الادب واسناده صحيح)

(٤) وهذا وحشي قاتل حمزة ..قال : أتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال لي:
((وحشي؟)) فقلت: نعم. قال: (أقتلت حمزة ؟) قلت: نعم؛ والحمد لله الذي أكرمه بيدي، ولم يُهِنِّي بيديه. فقالت له قريش: أتحبه وهو قاتل حمزة؟ ! فقلت: يا رسول الله! فاستغفر لي! (حسنه الهيثمي في المجمع)

(٥) وهذا اسامة بن زيد لما قريش أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ! فقال له أسامة : استغفر لي يا رسول الله ..(الترمذي واسناده على شرط مسلم)

(٦) قال عبيد أبو عامر لأبي موسى: يا ابن أخي انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقرِئْهُ مني السلام وقل له: يقول لك: استغفر لي ، فقلت: ولي يا رسول الله فاستغفر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله مدخلا كريماً) (صحيح ابن حبان واسناده صحيح)

أقوال العلماء من المذاهب الأربعة

(١) المذهب الحنبلي :

قال الإمَامُ المرْدَاوي (ت ٨٨٥هـ) ـ يَرْحَمُهُ اللهُ ـ : (يَجُوز التوسُّل بالرجل الصالح ، على الصحيح من المَذْهَب . وقيل يُسْتَحب قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مَنْسَكِهِ الَّذِي كَتَبَهُ لِلْمَرُّوذِيِّ : يَتَوَسَّلُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُعَائِهِ وَجَزَمَ بِهِ فِي الْمُسْتَوْعِبِ وَغَيْرِهِ)[١]

وفي كتاب كشاف القناع الجزء الثاني :

وقال السامري وصاحب التلخيص : لا بأس بالتوسل للاستقاء بالشيوخ والعلماء المتقين . وقال في المذهب : يجوز أن يستشفع إلى الله برجل صالح وقيل للمروذي : إنه يتوسل بالنبي في دعائه وجزم به في المستوعب وغيره ، ثم قال : قال إبراهيم الحربي : الدعاء عند قبر معروف الكرخي الترياق المجرب[٢]

---

(١) في "الإنْصاف" (٢/٤٥٦)

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٩/٣٤٣ ط الرسالة

(٢) المذهب الحنفي

قال ابن نجيم الحنفي (ت ٧١٠ هـ): رخص في زيارة قبور الصالحين للترحم والتبرك .(البحر الرائق شرح كنز الحقائق)

الإمام كمال الدين بن الهمام الحنفي رضى الله عنه (ت: ٨٦١هـ) كتاب الحج، باب زيارة النبي صلى الله عليه وسلم:

(ويسأل الله حاجته متوسلا إلى الله بحضرة نبيه ثم قال يسأل النبي صلى الله عليه وسلم الشفاعة فيقول يا رسول الله أسألك الشفاعة يا رسول الله أتوسل بك إلى الله.)[١]

قال علامة العلماء المتبحرين شمس الدين بن الجزري في مقدمة شرحه للمصابيح : إني زرت قبره بنيسابور (يعني مسلم بن الحجاج القشيري) وقرأت بعض صحيح على سبيل التيمُّن و التبرُّك عند قبره ورأيت آثار البركة ورجاء الإجابة في تربته.ا.هـ

(٣) المدهب المالكي

(١) فتح القدير (٢/ ٣٣٢)

قصه الخليفة المنصور مع الإمام مالك رضي الله عنه :

(أن مالكاً رضي الله عنه لما سأله أبو جعفر المنصور العباسي - ثاني خلفاء بن العباس- يا أبا عبد الله: أأستقبل رسول الله صلى الله عليه سلم أم أستقبل القبلة وأدعو؟

فقال الإمام مالك: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك أدم عليه السلام إلى الله عز وجل يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفع فيك)

عبد الحق الإشبيلي (ت:**٥٨٢** هـ) في كتاب العاقبة في ذكر الموت ص**٢١٩** يقول:

ويستحب لك رحمك الله أن تقصد بميتك قبور الصالحين ومدافن أهل الخير فتدفنه معهم وتنزله بإزائهم وتسكنه في جوارهم تبرُّكاً بهم وتوسلاً إلى الله تعالى بقربهم

(**٤**) المذهب الشافعي

الحافظ البيهقي : روى عنه ابن الجوزي في المنتظم (**١١** / **٢١١**) من مناقب أحمد بن حرب

" استجابة الدعاء إذا توسل الداعي بقبره " .

الحافظ البيهقي فقد روى في شعب الإيمان بسنده قال:

(أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو محمد بن زياد، حدثنا محمد بن إسحاق الثقفي، قال: سمعت أبا إسحاق القرشي، يقول: كان عندنا رجل بالمدينة إذا رأى منكراً لا يمكنه أن يغيره أتى القبر، فقال:

أيا قبر النبي وصاحبيه ... ألا يا غوثنا لو تعلمونا).اهـ

الإمام الرافعى الشافعي (**٥٥٧**هـ:**٦٢٣**هـ) :

توسل بقوله "متوسلاً بشفاعة من عنده يوم الجزاء " التدوين فى أخبار قزوين (٢ / ٧٦)

فالتوسل بجاه النبي ﷺ [بعد المات] جائز وقد فعله ائمة كبار:-

١. العلامة الفقيه عبد الغني الغنيمي الحنفي صاحب "اللباب في شرح الكتاب" قال في خاتمة كتابه "شرح العقيدة الطحاوية" داعياً: "وصلِّ وسلم على سيدنا محمد فإنه (((أقرب من يُتَوسل به إليك)))".

٢- شمس الدين الرملي الملقب بالشافعي الصغير، قال في مقدمة كتابه "غاية البيان في شرح زُبَد ابن رسلان" داعياً: "والله أسأل (((وبنبيه أتوسل))) أن يجعله (أي عمله في هذا الكتاب) خالصاً لوجهه الكريم".

٣- خاتمة المحققين الشيخ ابن عابدين الحنفي، قال في مقدمة حاشيته على الدر المختار داعياً: "وإني أسأله تعالى (((متوسلاً إليه بنبيه المكرم))) صلى الله عليه وسلم".

٤- الإمام محمد الزرقاني المالكي، قال في خاتمة شرحه للموطأ داعياً: "وأسألك من فضلك (((متوسلاً إليك بأشرف رسلك))) أن تجعله (أي شرحه للموطأ) خالصاً لوجهك".

٥- المحدث إسماعيل بن محمد العجلوني ، قال في كتابه "كشف الخفاء ومزيل الإلباس" (ج٢/ ٤١٩) داعياً: "وَضعَ الله عنا سيئات أعمالنا بإفضاله الجاري، وختمها بالصالحات (((بجاه محمد صلى الله عليه وسلم))) سيد السادات".

صيغة التوسل والإستغاثة الصحيحة

اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد ﷺ إني أتوجّه بك إلى ربي في حاجتي هذه (وتسمّى الحاجة) لتقضيها لي..

ويلح المسلم في الطلب من الله وحده سبحانه وتعالى لقضاء الحاجة سواء دفع شرّ وضرّ أو جلب نفع وخير

وليكن طلبك بعد نافلة صلاة تخصها للطلب. كما يلي :

صلاة_الحاجة

١. صلاة ركعتين

٢. اللهم أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة .. يا محمد اني توجهت بك الى ربك

٣. ثم تُسمّي وتذكر حاجتك التي تريد أن يقضيها

٤. ثم تسال الله أن يشفع ﷺ فيك

وصلاة الحاجة : ركعتين عند الجمهور (المالكية والشافعية والحنابلة وقول للاحناف) كما في الحديث

ليس لها وقت محدد ويستحب اختيار الأوقات التي فيها استجابة الدعاء مثل آخر ساعة من الجمعة ووقت افطار الصائم فله دعوة مستجابة

الحديث :

أخرج الإمام أحمد وغيره بسند صحيح عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ادع الله أن يعافيني . فقال صلى الله عليه وسلم : (إن شئت دعوت لك ، وإن شئت أخّرتُ (صبرت) ذاك ، فهو خير لك فقال : ادعهُ.

فأمره أن يتوضأ ، فيحسن وضوءه ، فيصلي ركعتين ، ويدعو بهذا الدعاء : { اللهم إني أسألك ، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني توجهتُ بك إلى ربي في حاجتي هذه ، فتقضى لي ، اللهم فشفّعه فيَّ وشفّعني فيه) .

قال : ففعل الرجل فبرأ .... وعند النسائي زاد في آخره : فرجع وقد كشف الله عن بصره

رواه الامام أحمد (٤/ ١٣٨)، والترمذي (**٣٥٧٨**) وقال: حسن صحيح والحاكم (١/ **٣١٣**) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه ابن حجر (راجع الحديث فيما سبق وناقشناه في هذه الرسالة)

(١) عند الأحناف لاختلاف الروايات اعتمدوا في المذهب :-

أربع ركعات بعد العشاء

١. يقرأ في الأولى الفاتحة مرة وآية الكرسي ثلاثا

٢.وفي كل من الثلاث الباقية يقرأ الفاتحة والإخلاص والمعوذتين مرة مرة

تمت بحمد الله تعالى

وَضعَ الله عنا سيئات أعمالنا بإفضاله الجاري، وختمها بالصالحات بجاه محمد صلى الله عليه وسلم سيد السادات.

وأسألك من فضلك ،متوسلاً إليك بأشرف رسلك، أن تجعل كتابي هذا خالصاً لوجهك.

صدر للمؤلف :

١ كتاب رسالة في الميراث

٢ كتاب شرح البسملة

٣ كتاب صفة صوم النبي بفقه المذاهب الاربعة

٤ كتاب عذاب القبر عند اهل السنة

٥ كتاب فقه الصيام على المعتمد في المذاهب الاربعة

٦ كتاب كرامات الاولياء

٧ كتاب مسائل الخلاف بين الاشاعرة والمعتزلة

٨ كتاب مجالس المذاهب - الجزء الاول

٩ كتاب مجالس المذاهب - الجزء الثالث

١٠ كتاب مجالس المذاهب الجزء الثاني

١١ كتاب مختصر صفة صلاة النبي بفقه المذاهب الاربعة

١٢ كتاب مناسك الحج والعمرة على المذاهب الاربعة

١٣ كتاب الصوم بفقه المذهب الحنفي

١٤ كتاب الصيام بفقه المذهب المالكي

١٥ كتاب الصيام على المذهب الحنبلي

١٦ كتاب الصيام على المذهب الشافعي

١٧ كتاب الطيب في مولد الحبيب

١٨ كتاب العقيدة للامام زروق

١٩ كتاب الفتاوى الصوفية لكبار علماء أهل السنة

٢٠ كتاب نفي الجهة

٢١ كتاب : اخراج القيمة نقدا عند الاحناف

٢٢ كتاب : أصول الدين

٢٣ كتاب : الأسماء والصفات بفقه المذاهب الأربعة

٢٤ كتاب : الاقتباس من آيات القران في الشعر والنثر

٢٥ كتاب : البدعة الحسنة ومحدثات الصحابة

٢٦ كتاب : التوسل والإستغاثة بالنبي

٢٧ كتاب : الحبل الوثيق في نصرة الصديق

٢٨ كتاب : الرد المتين في ابن عربي محي الدين

٢٩ كتاب : القول الأشبه في شرح حديث من عرف نفسه عرف ربه

٣٠ كتاب : أحكام العيد بفقه المذاهب الأربعة

٣١ كتاب : فتنة القبر وسؤال منكر ونكير

٣٢ كتاب : متن العقيدة التاجية للسبكي

٣٣ كتاب : مسائل الحنابلة

٣٤ كتاب احكام الاضحية

٣٥ كتاب الأركان الأربعة للأصول الأربعين عند الغزالي

٣٦ كتاب الايناس في شرح ما اشكل من حزب المرسي ابي العباس للسيوطي

٣٧ كتاب الجهة والإستواء

٣٨ كتاب الحساب والفلك ورؤية الهلال

٣٩ كتاب الخبر الدال على صحة حديث الأبدال

٤٠ كتاب الصفات السبع

٤١ كتاب القول المفيد في التهنئة بالعيد المجيد

٤٢ كتاب الكرامات

٤٣ كتاب الملائكة والجن

٤٤ كتاب إمامة المرأة للرجال

٤٥ كتاب تنزيه الإعتقاد عن الحلول والاتحاد

٤٦ كتاب تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي